المقدمـــة

الاستيلاء على الأرض

يطلـق مايكل فيريس، مؤسـس ورئيس كليـة باترك هنري الإنجيليـة، على حملته لتحويل الطلبة المسـيحيين الذين يتلقون تعليمهم في المنازل إلى كوادر سياسـية: جيل يشـوع(•). ولهذا الاسـم معانٍ إنجيلية وحربيـة محددة. إذ كان يشـوع - بناءً على ما ورد في الكتاب المقدس - قائداً عسـكرياً تحت قيادة النبي موسـى، ثم أصـبح خليفة له وقائداً لشـعب إسـرائيل؛ في حين تمكن موسـى من إخراج شـعبه من مصـر، فإن يشـوع هو الذي قادهم إلى الأرض المقدسـة. أما جيل يشـوع الذي يطمح فيريس إلى تكوينه، فإنه يضـطلع بمهمة أقل دموية، إلا أنها مع ذلك مشـبعة بحلم العهد القديم، المتمثل بالمنفى الذي يعقبه الفتح والنصر. والأرض المقدسة هي أمريكة كما يتصورها فيريس. والعدو هو أمريكة بحالها اليوم.

كان فيريس - وهو ناشـط قديم في اليمين المسـيحي، وأحد أبرز الروّاد المناصرين لتعليم الأبناء في بيوتهم بديلاً عن التحاقهم بالمدارس الحكومية - يخطب في جمهور المشـاركين في المؤتمر المسـيحي السـنوي للآباء والأمهات الذين يعلمـون أبناءهم في منازلهم، والمنعقد في مدينة كولورادو عام 2005م. واحتشد آلاف من الآباء والأمهات على مدى ثلاثة أيام في مركز المعرض التجاري لمدينة دنفر -وهو صالة عرض ضخمة وقاعة مؤتمرات- للاستماع إلى المحاضرات، والمشاركة في ورشات عمل تحت عناوين مثـل: (مقاومـة الثقافة الفاسـدة عن طريق تنشـئة جيل يتقن التواصـل المسـيحي» و«اسـتعادة القيـم الأمريكية). ويعج موقف السـيارات في المركز بالسـيارات الكبيرة رباعية الدفع، التي تحمل صور بوش وتشيني، وشعار سمكة يسوع، وأوشحة مغناطيسية مكتوب عليها «ادعموا جنودنا في الخارج». وكان في داخل المركز مجموعة من النسـاء يرتدين ملصقات مكتوب عليها: «أنا متزوجة من أفضل مدير مدرسة في العالم».

(•) Genevabion Joshua.

ويطلق فيريس على هؤلاء الآباء والأمهات، ومن شابههم في الولايات المتحدة، وصف: (جيل موسى)؛ لأنهم نجحوا في قيادة أبنائهم من عبودية المدارس الحكومية التي لا تعرف الرب. بيد أن الإقامة الدائمة في المنفى، بعيداً عن الثقافة السائدة في أمريكة، لم يكن في يوم من الأيام هو الهدف النهائي. وكما ذكر فيريس في كتابه الذي يحمل عنوان جيل يشوع، فإن حركة تعليم الأبناء في المنازل «سوف تحقق نجاحها حين ينخرط أبناؤنا - جيل يشوع - بكل تفان وإخلاص في معركة الاستيلاء على الأرض».

ويعترف فيريس بأن تلك المهمة ستكون مهمة صعبة وجسيمة. «هذه الأرض هي أرض تلفاز الموسيقى، وإباحية الإنترنت، والإجهاض، والشذوذ الجنسي، والجشع، والأثرة في تحقيق الذات»، ويلاحظ فيريس أن (العمالقة) هم الذين يقودون ويوجهون أمريكة: «العمالقة الذين يعملون في حقول القانون، والحكومة، والصحافة، والتاريخ. وعلينا أن ننظر نظرة فاحصة وعميقة إلى المعاهد والجامعات النخبوية في وطننا. إن أعداء الحرية يهيمنون على هذه المؤسسات، وبالنتيجة يهيمنون على ثقافة أمتنا» [1].

إن ما يريده فيريس هو ثورة ثقافية. فهو يحاول تدريب جيل من القادة المحصنين من تأثير العلمانية؛ ليكتسبوا قوة سياسية كي تتمكن المسيحية - كما يتصورونها - من احتواء كل شيء: الترفيه، والقانون، والحكومة، والتعليم. وقد يبدو هذا الأمر ضرباً من الخيال، إلا أنه يجدر بنا أن نمعن النظر في كل ما استطاع فيريس تحقيقه حتى الآن.

يبلغ فيريس - ذو القامة القصيرة والمظهر الحسن - من العمر خمسين عاماً، ولكنه يبدو أصغر سناً من ذلك بكثير. وهو من أتباع تم ليهي، صاحب الروايات الإنجيلية الشهيرة، التي تدور أحداثها حول نهاية الزمان، والعودة الثانية للمسيح، وعنوانها المتخلف عن الركب. كان فيريس يشغل منصب مستشار أول لمنظمة النساء المهتمات من أجل أمريكة - وهي المنظمة التي أسستها بفرلي زوجة تم ليهي - وذلك قبل أن يتفرغ تفرغاً كاملاً لمناصرة قضية تعليم الأبناء في المنازل عام 1983، حين أسس جمعية الدفاع القانوني للتعليم في المنازل. وكان فيريس وزوجته فيكي قد بدأا

عام 1982 بتدريس ابنهما الأول – من أصل عشرة أولاد لهما – في المنزل. ولم يكن أحد وقتها يفعل ذلك؛ لأن الامتناع عن إرسال الأولاد إلى المدارس والاكتفاء بتدريسهم في المنزل، كان يعد عملاً مخالفاً للقانون في معظم الولايات الأمريكية. أما الآن، وبفضل جهود فيريس، فقد أصبح تعليم الأولاد في المنزل حقاً يقره القانون في جميع الولايات الأمريكية، وأصبحت ممارسته شعاراً على صدق الانتماء بين المسيحيين المحافظين. ويوجد في الولايات المتحدة اليوم ما يقارب 1,1 إلى 2,1 مليون من الطلاب الذين يتلقون تعليمهم في منازل ذويهم، وتنتمي غالبيتهم إلى الطوائف الإنجيلية[2].

وقد بدأ بالفعل تأثير هؤلاء الفتية الذين تدربوا ليكونوا فرسان الثقافة المسيحية يحدث أثره. وتوجه كلية باترك هنري التي أنشأها فيريس في منطقة ريفية من ولاية فيرجينيا، برامجها تحديداً نحو أبناء الطائفة الإنجيلية الذين تلقوا تعليمهم في المنزل. وبدأت هذه الكلية باستقبال الطلاب عام 2000، وتقبل أقل من مئة طالب في العام. ومع ذلك، فقد كان 7 % من المقبولين للتدريب في وظائف البيت الأبيض في ربيع عام 2004 من خريجي تلك الكلية. كما قبل اثنان وعشرون من أعضاء الكونغرس تدريب واحد أو أكثر من خريجي كلية باترك هنري ضمن مجموع الموظفين العاملين لديهم. ويعمل أحد خريجي هذه الكلية ضمن فريق موظفي كارل روف بدوام كامل[3].

وعن طريق منظمة (جيل يشوع) التي انطلقت عام 2004 لدفع الناشئة إلى الانخراط في العملية السياسية، أصبح هؤلاء الفتية عساكر يعملون لمصلحة الحزب الجمهوري، قبل أن يبلغوا السن القانوني لممارسة الحق بالتصويت في الانتخابات. وتحملت حملة جيل يشوع في سنتها الأولى مصاريف السفر والإقامة لمئات من طلبة المنازل الذين تطوعوا للعمل في الحملات الانتخابية لمرشحي الجناح اليميني المتطرف في مختلف أرجاء البلاد، وكافأت العناصر الأكثر فاعلية ونشاطاً بمنح دراسية في كلية باترك هنري. كما أرسلت فرقاً منهم للعمل في حملة بوش الانتخابية في الولايات ذات الأصوات الترجيحية، وبعثت بمجموعات أخرى من الطلاب للمساعدة في حملات الجمهوريين لعضوية مجلس الشيوخ، من أمثال توم كوبورن في ولاية أوكلاهوما (يطالب

كوبورن بفرض عقوبة الإعدام على كل من يمارس عمليات الإجهاض)، وجم ديمنت (الذي صرح بأنه يرغب في منع الشواذ جنسياً والنساء الحوامل غير المتزوجات من التدريس في المدارس الحكومية). وفاز كل من ديمنت وكوبورن في سباقهما الانتخابي، وكذلك جميع المرشحين الذين دعمهم جيل يشوع.

يرأس منظمة جيل يشوع شخص يسمى ند رايون، وهو كاتب خطابات سابق لدى جورج دبليو بوش، وابن النائب في الكونغرس عن ولاية كانزاس جم رايون. وند رايون - الذي يبلغ من العمر الآن ثلاثين عاماً، ويلبس النظارات، ويصفف شعره الداكن إلى الخلف - هو نفسه أحد الذين تلقوا تعليمهم في المنزل. ويعرف الإنجيل تمام المعرفة كما هو شأن فيريس، ويعي آليات عمل السياسة في العاصمة واشنطن. وكما أوضح لأولياء أمور الطلاب الذين اختاروا تعليم أبنائهم في المنزل - حين تحدث في اليوم الأول من مؤتمر دنفر - بأن إحدى مسؤولياته هي تدريب الطلبة الذين يتعلمون في منازلهم، وتهيئتهم على ردم الهوّة بين هذين العالمين.

وبمقتضى فلسفة منظمة جيل يشوع، تحمل المسيحية الحل لكل نزاع عام أو خاص. وفي ضوء عدم تقبل الشعب الأمريكي لهذه الحقيقة، فإن الأفكار المسيحية بحاجة إلى إعادة صياغة بمفردات غير دينية. ويقوم رايون بتدريس آلاف من أتباعه هذا الأسلوب الخطابي المؤلف من مرحلتين: الأولى: هي المحادثة والحلقات الدراسية التي تُقام عبر الإنترنت، والثانية: هي نوادي الكتب.

ويوضح رايون هذه المسألة بقوله:«كثيراً ما تسمع المسيحيين يقولون في المناقشات العامة: (الإنجيل يقول كذا وكذا)، أو أن (الرب يقول بأن هذا العمل خطأ). وهذا صحيح. فـ(الرب) لا يقبل زواج الشواذ جنسياً من بعضهم بعضاً، و(الرب) يرى أن (الإنجيل يحمي الحياة). إلا أنك حين تنخرط في نقاش عام، فإنه ينبغي أن تستخدم مصطلحات وحقائق يقبلها الطرف الآخر، وتعدّ معقولة في نظره. وما أسعى إلى تحقيقه مع الناشئة من الشباب؛ هو أن نأخذ الإنجيل والدستور الأمريكي، وننظر إلى واقعنا الراهن، ونسأل أنفسنا: ما هو قول الإنجيل فيما يحدث؟ ولنكوّن نظرة عالمية راسخة متينة مستمدة من الإنجيل، ثم نتعلم كيفية توصيلها إلى الآخرين بعبارات مستساغة ومقبولة لديهم».

ويتنبأ فيريس و رايون بمشاهدة حكومة مؤلفة من أشخاص يفكرون بهذه الطريقة، ويقول رايون في هذا الصدد: «سيتبوأ جيل المتعلمين في منازلهم أعلى مستويات القيادة والسلطة في البلاد في العقود القادمة، وعلى نحو غير عادي»، وأضاف: «لقد بدأنا نشاهدهم ينتشرون في العاصمة. حيث يعملون في ملاك موظفي الكونغرس». وأشار رايون إلى أن أخته التي تلقت تعليمها في المنزل كذلك، تعمل في مكتب الإعانات الاجتماعية والدينية في البيت الأبيض، الذي يتولى تصريف مئات الملايين من دولارات الخزينة العامة إلى الجمعيات الخيرية الدينية.

ويوضح رايون قائلاً: «ثمة نظرتان متضادتان للعالم اليوم نلحظ أثرهما على نحو خاص في واشنطن العاصمة. الأولى هي النظرة اليهودية - المسيحية؛ وهذه تبدأ من (الرب) الخالق، وهي تحمي الحياة، وتهتم بالزواج الطبيعي، رجل واحد وامرأة واحدة»، بحسب قوله. «وهناك في المقابل، النظرة العلمانية الإنسانوية، التي تبدأ بالإنسان بوصفه مركز كل شيء. وليس فيها معايير مطلقة، فالأخلاق نسبية، وكل شيء مباح ما دام متعلقاً بالجنس».

وبحسب رأي رايون، فإن كل ما تفعله الحكومة لا بد أن ينبثق عن واحد من هذين النظامين. وأضاف قائلاً: «إذا نظرت إلى مختلف القوانين التي تؤثر في حياتنا؛ كقوانين الضرائب، والضمان الاجتماعي، وقضايا الحياة، فإن بإمكانك أن تردّ أصل هذه القوانين والسياسات المختلفة كلها إلى واحدة من هاتين النظرتين العالميتين».

وتأسيساً على ذلك، فإن كل قضية سياسية، وكل جانب من جوانب الخلاف في الحياة الوطنية هي - حقاً - صراع بين الخير والشر.

♦

وبعد أن فرغ رايون من إلقاء كلمته، خرج معظم الجمهور إلى قاعة العرض الكبيرة لشراء مستلزمات التدريس. وكانت القاعة الشاسعة كلها ـ 32 ألف قدم مربع ـ تضيق بأكشاك البيع التي تعرض مناهج الكتب المدرسية المسيحية، وأفلام الفيديو، والألعاب التعليمية للطلاب من مختلف الفئات العمرية. وكان هناك أكوام من كتب التلوين

المستقاة من الإنجيل، وأكوام من كتب العلوم المؤسسة على أصل الخلق، وأعداد لا تحصى من قصص المغامرات حول المبشرين البواسل، ومن الكتب الإرشادية الخاصة بتنشئة بنات عفيفات مطيعات، وأبناء ناشطين أكفاء، إضافة إلى المجلدات الضخمة في التاريخ وتفسيرات الكتاب المقدس.

وتكاد تجد في كل مكان جميع الأشياء والأدوات ذات العلاقة بالحروب الثقافية. إحدى طاولات العرض كانت تبيع كتاباً عنوانه (عن الباندا والإنسان)؛ وهو كتاب أحياء مناهض للنشوء والارتقاء، تقرر تدريسه في المدرسة الثانوية في مدينة دوفر في ولاية بنسيلفينيا عام 2004، وكانت تلك الخطوة محل اهتمام إعلامي عالمي. وعرض عدد من الباعة كتاباً جديداً لروي موور، رئيس القضاة السابق في المحكمة العليا في ولاية آلاباما، الذي فقد وظيفته بعد رفضه إزالة نصب يزن 2,5 طن من الرخام نقشت عليه الوصايا العشر من مبنى المحكمة. وعرض بائع آخر كتاب: (كيف تخلع القضاء الإمبريالي)، من تأليف إدوين فاييرا، الذي ذاع صيته السيئ عقب استحسانه وتلميحه إلى أنها طريقة ستالين في التصفية الجماعية هي الأسلوب الأفضل في التعامل مع القضاة الليبراليين.

وبالنتيجة، فإن الكم الهائل من المواد الإعلامية المعروضة في قاعة المؤتمرات في مدينة دنفر تعكس نظرة إلى الواقع تناقض تماماً نظرة العالَم العلماني. فكتب التاريخ فيه تصف ماضياً تأسست فيه أمريكة بوصفها أمة مسيحية، ثم ما لبثت أن خضعت وتلوثت نتيجة طغيان الليبراليين الذين يكرهون الرب، فمسخوا وحرفوا تراث البلاد. ويعرض أحد الأقراص المدمجة محاضرة تمجد التسامح المسيحي الذي أظهره البيوريتانز تجاه الهنود الحمر. وتدعي أشرطة الفيديو العلمية أن طليعة الباحثين تطعن بنظرية النشوء والارتقاء، وبعض تلك الأشرطة قدمت أدلة على أن الديناصورات والبشر كانوا يعيشون معاً في جنة عدن. وتوضح كتب علم الفلك أن الكون خلق قبل ستة آلاف سنة، برغم أن الكون يظهر بمظهر القدم. ولهذا السبب تبدو الأشعة الصادرة عن النجوم وكأنها قطعت ملايين السنين حتى تصل الأرض.

وتمتلئ كثير من الكتب بالهوامش التي تشير إلى مراجع معروضة للبيع في أكشاك أخرى، وكل واحد منها يؤكد ما يدعيه الآخر. وفي أثناء تصفحي هذه الكتب واحداً تلو الآخر، شعرت أحياناً وكأنني في رواية من روايات جورج لويس بورغيس، أتنقل عبر واقع موازٍ تكتنفه مكتبة ضخمة من الأكاذيب.

والناس الذين يعيشون في هذا العالم الموازي - في العادة - يطلقون اسم «النظرة العالمية المسيحية». وهذا المصطلح مؤسس على الاعتقاد بأن المسيحية الحقيقية يجب أن تحكم كل جانب من جوانب الحياة العامة والخاصة، وأن الحكومة، والعلوم، والتاريخ، والثقافة، والعلاقات يجب أن تفهم بحسب ما يفرضه (الكتاب المقدس). فهناك مواقف إنجيلية صحيحة تجاه كل القضايا، من زواج الشواذ، إلى معدلات الضريبة، ولا يستطيع أحد أن يعي هذه المواقف، إلا أولئك الذين لديهم النظرة العالمية الصحيحة.

هذه هي المسيحية بوصفها أيديولوجية شاملة. وهذه أيديولوجية يؤمن بها ملايين من الأمريكيين، وبعضهم يتمتع بسلطات قوية. وهي القوة الدافعة وراء كثير من المواجهات عن الدين، والعلوم، والجنس، والتعددية، التي باتت تقسم النسيج الاجتماعي في البلاد. إنها رفض واعٍ للعقلانية المستنيرة، وهي أيديولوجية، يسعى أشخاص مثل رايون و فيريس أن تقود كل قرار يصدر عن الحكومة.

♦

لقد أطلقت على هذه الأيديولوجية السياسية الشمولية مصطلح (القومية المسيحية)، وسأحاول في هذا الكتاب أن أوضح كيف يعمل هذا التيار على إعادة تشكيل أمريكة. وتؤلف حركة تدريس الأبناء في المنازل - بديلاً عن إرسالهم إلى المدارس الحكومية - طليعة القومية المسيحية، إلا أن هذه الأيديولوجية يروج لها عدد لا يحصى من الكنائس، وجماعات الضغط، والساسة، ومكاتب المحاماة، والنقابات المهنية، ونوادي الطلبة، والمنافذ الإعلامية. وترتبط هذه المنظمات بعضها مع بعض برباط وثيق؛ لتكوّن حركة منتظمة وقادرة على اتخاذ أشكال متنوعة ومتغيرة على

نحو يصعب تصديقه. إنها كأفعوان الملاّح الخرافي ذي الرؤوس المتعددة، فهي أحياناً متناقضة، ولكنها على درجة من الوحدة بحيث يمكن تسميتها باسم واحد.

لقد كانت الولايات المتحدة على مر السنين بلداً يسوده التقى، وتظهر فيه من وقت لآخر فورات من الحمى الروحية، إلا أن القومية المسيحية تختلف اختلافاً نوعياً عن أي انبعاث ديني سابق. وتدعي الحركة القومية المسيحية – مثل الصحوة الأمريكية العظمى في السابق ـ أن الكتاب المقدس هو الحقيقة الحرفية والمطلقة. ولكنها تذهب إلى أبعد من ذلك بكثير، حين تستخرج برنامجاً سياسياً من تلك الحقيقة، وتربط ذلك البرنامج بحزب سياسي. إنها حركة تزاوج بين الكتاب المقدس والسياسة، وترى أن التفوّق الذي تتمتع به أمريكة هو تأكيد على صحة الدين المسيحي، وأن الصراعات التي تخوضها أمريكة هي جزء من الصراع بين (الرب) والشيطان. وتضفي هذه الحركة حصانة ربانية على حملاتها الهادفة إلى التجديد الوطني، وتتحدث بابتهاج ونشوة عن فناء ملايين الأمريكيين الذين سيقفون في طريقها.

والحلم المحفز للحركة هو إعادة تأسيس الأمة المسيحية المتصوّرة. إن القومية المسيحية ترفض فكرة الحياد الديني للحكومة، وتدعي هذه الحركة عبر نظرتها التاريخية التصحيحية أن الآباء المؤسسين لم تكن نيتهم إقامة دولة علمانية، وأن الفصل بين الكنيسة والدولة كان إفكاً افتراه وروّج له اليسار المتآمر. وتجادل الحركة بأن انعدام الدين في الحياة العامة هو نفسه دين آخر – هو العقيدة الخبيثة للعلمانية الإنسانوية –، يلزم بمقتضى الإنصاف والمساواة، أن يكون للكتاب المقدس احترام مماثل للاحترام الذي يلقاه ذلك الدين.

وكما آمل أن أوضح في الفصول القادمة، فإن الهدف الأسمى لقادة الحركة القومية المسيحية ليس الإنصاف والعدالة، بل الهيمنة. إن هذه الحركة مبنية على عقيدة تؤكد على حق اليمين في الحكم. وهذا لا يعني أن غير المؤمنين سيجبرون على تغيير عقيدتهم. ولكن عليهم أن يعرفوا مكانتهم.

وكبقية العقائد الأخرى، يوجد لدى القومية المسيحية رواية خاصة للتاريخ. إنها قصة حول الدولة الربانية، التي باركها (الرب) على تقواها، ولكنها بدأت تنحرف في القرن التاسع عشر، وأخذت تنحدر إلى مستويات سفلى غير متصورة في القرن العشرين. لقد أدت نظرية داروين إلى تلاشي إيمان الناس بكرامة الإنسان وسيادة الرب. وتحولت الجامعات العظيمة - التي كانت ترى في المسيحية مصدراً لكل أقسام المعرفة والعلوم - عن الكتاب المقدس، لتسلك درب الفلسفة العلمانية لأوروبة المنحلة. وهي الفلسفة التي تضع الإنسان في مركز الكون. وجلبت إصلاحات فرانكلين ديلينو روزفلت - المعروفة بالصفقة الجديدة - الاشتراكية إلى أمريكة، وبدأت بعملية أخذت فيها الدولة محل الكنيسة في دور الضامن والمزود للرفاه الاجتماعي.

ونشأ جيل جديد من المفكرين والمحامين من الذين أسقطوا من اعتبارهم مركزية (الرب) في الكون، وخاضوا معارك عنيفة ضد التراث المسيحي الأمريكي. وازدرى القضاة الملحدون الربَّ بمنعهم إقامة الصلاة في المدارس الحكومية، ورفعهم الحظر عن منع الحمل، ولعل أكثر الأحكام القضائية ازدراءً للرب، هو إجبارهم الولايات على إباحة الإجهاض بالحكم الصادر عام 1973 في قضية روف ويد.

وبدأ (الرب) الغضبان بنزع نعمته من هذه الأمة. فارتفعت معدلات الجريمة والتنافر. وانقلب الأبناء ضد آبائهم، والزوجات ضد أزواجهن. وعمت الشهوانية والإباحية. وفي العقود الأخيرة من القرن العشرين، باتت قوى الظلام تهدد بتحويل أمريكة إلى سدوم جديدة. وخرج الشواذ جنسياً، وكل رمز فاسد ومخالف للفطرة، إلى الملأ للمجاهرة بسلوكهم، ونشر الرذيلة والانحراف والأمراض. وبينما هم يرقصون طرباً في الملأ، توارت المسيحية إلى الحيز الشخصي، وهو منفى شجع عليه القساوسة الليبراليون في الكنائس التابعة للاتجاه السائد، الذين أعمتهم دنياهم عن الحقيقة الصافية لكلمة الرب.

لكنّ (الرب) لم ييأس من أمريكة. فحوّل قلوب بعض الناس، وسرعان ما شهدت البلاد نهضة مسيحية عظيمة. فازدهرت كنائس الإنجيليين المحافظين وانتشرت انتشار الفطر. ونزع المؤمنون عن أنفسهم عدم الاكتراث، فنظموا أنفسهم، وانتخبوا رجالاً متدينين.

وعلى الرغم من ذلك، بقي أعداء (الرب) أقوياء، في الخارج وفي الداخل. وفي 11 سبتمبر وجهوا ضربتهم. وقدم الخونة في الداخل المساعدة للإرهابيين، أولاً عن طريق إضعاف البلاد بانحلالهم الأخلاقي، ثم عن طريق الإمعان في ضعضعتها وهي تحت تأثير الضربة. وإذا رغبت أمريكة في التفوق والنصر، فإن عليها أن تنقي نفسها، وتعيد وضع (الرب) في مركز الحياة العامة، وتقضي في النهاية على الليبرالية.

وفي أعقاب هجمات 11 سبتمبر، وضع اثنان فقط من الشخصيات البارزة في البلاد اللوم على البلاد في جلب المصيبة على نفسها. فقد ظهر جيري فالويل في 13 سبتمبر على برنامج نادي 700، وهو البرنامج التلفزيوني التابع للقس بات روبرتسون، وقال: «إنني أؤمن حقاً أن الوثنيين، وأنصار الإجهاض، وأنصار المرأة، والشواذ جنسياً من الرجال والنساء الذين يحاولون جاهدين جعل سلوكهم طريقة بديلة للحياة، والاتحاد الأمريكي للحريات المدنية، وأنصار الطريقة الأمريكية، كل هؤلاء يحاولون علمنة أمريكة. إنني أشير بأصبعي إلى وجوههم وأقول: «لقد ساعدتم في حدوث هذه الكارثة». فرد روبرتسون قائلاً: «أتفق معك تماماً».

♦

لا تمثل الحركة القومية المسيحية غالبية الأمريكيين ـ كما أنها لا تمثل غالبية الإنجيليين ـ إلا أنها تمثل أقلية ذات اعتبار، وتتمتع بجاهزية كبيرة وسريعة في الحركة والنشاط. ويشكل الإنجيليون البيض ربع سكان البلاد تقريباً، بحسب دراسة مسحية قام بها العالم السياسي جون غرين عام 2004. وكشفت تلك الدراسة عن أن 12,6 % من الأمريكيين يصفون أنفسهم بالإنجيليين التقليديين، وهذه المجموعة كما يصفها غرين هي (الأقرب إلى اليمين الديني الذي كثر النقاش عنه قريباً في وسائل الإعلام)، ويرى غرين أن هذه المجموعة تميل إلى الحزب الجمهوري بأغلبية ساحقة، وتنزع إلى رفض التعددية، وعلى سبيل المثال، ترفض الغالبية فيها الموقف القائل: إن «الشواذ جنسياً يجب أن يكون لهم الحقوق نفسها التي يتمتع بها بقية الأمريكيين الأسوياء»[4].

أما جورج بارنا، وهو مستطلع آراء إنجيلي معتبر، فيعرف «الإنجيليين» تعريفاً أضيق، وذلك حين يصفهم بأنهم طائفة أصولية متفرعة عن المسيحيين المولودين من جديد*. وبحسب المعايير التي وضعها، فإن 40 % من الأمريكيين تقريباً هم من المسيحيين المولودين من جديد، في حين أن 7 % فقط يمثلون إنجيليين حقيقيين. ويوجد في تلكما الفئتين تأييد كبير لتعديل الدستور الأمريكي لجعل المسيحية الدين الرسمي للبلاد. ويدعم 66 % من الإنجيليين هذه الفكرة، وكذلك 44 % من المسيحيين المولودين من جديد.

ولا يمكن للأرقام - بالطبع - أن تقدم لنا سوى قيمة تقديرية عن حجم الحركة. أما الأفكار فليست محصورة في شريحة سكانية محددة، كما أن الأيديولوجيات ليست كتلة موحدة، فالناس يأخذون ما يهمهم ويطرحون ما سوى ذلك. وهناك عدد كبير من الكاثوليك، وقلة قليلة من اليهود، وأتباع موون، وغيرهم ممن انخرطوا بعمق في الحركة القومية المسيحية، كما يوجد عدد لا بأس به من المسيحيين ذوي التوجه الأيديولوجي التقليدي، يؤمنون إيماناً عميقاً بالفصل بين الكنيسة والدولة[5].

وحول مركز الحركة، هناك منطقة رمادية من المؤيدين الذين يتعاطفون مع أهداف الحركة، دون أن يعدوا أنفسهم جزءاً منها. وأعداد غفيرة أخرى من الذين يمكن حفزهم بالقضايا المتعلقة بالأسرة، والعقيدة، والعَلَم. وفي استطلاعات الرأي، يعرب أكثر الأمريكيين عن تأييدهم لبعض الاعتراف القانوني بعلاقات الزوجية بين الرجل والرجل، أو بزواج الأنثى بالأنثى، ومع ذلك، فإن الناخبين في كثير من الولايات صوتوا بأغلبية كبيرة لحرمان الأزواج المثليين من الفوائد المالية التي يمنحها القانون للأزواج العاديين، وعادة ما تأتي النتائج على هذه الصورة عقب إطلاق حملات إعلامية دعائية تحذر الناخبين من أن أسرهم وأبناءهم معرضون للخطر من قبل المنحرفين ذوي الأخلاق المنحلّة.

وإذا كان القوميون المسيحيون لا يهيمنون على سكان الولايات المتحدة، فإنهم يهيمنون على الحزب الجمهوري، لأسباب تتصل بحسن تنظيمهم أكثر من اتصالها بكثرة أعدادهم. وورد في دراسة نشرت عام 2002 في مجلة الانتخابات والحملات الانتخابية، أن اليمين المسيحي يتمتع بتأثير قوي في ثماني عشرة ولاية يسيطر عليها

الحزب الجمهوري، وله تأثير متوسط في ست وعشرين ولاية أخرى. وخلص مؤلفا الدراسة إلى أنه «مع أخذ كل شيء بالاعتبار، نجد أن التأثير الملاحظ للمسيحيين المحافظين قد ازداد في الولايات التي يتمتع فيها الحزب الجمهوري بنفوذ كبير منذ عام 1994... إذ كان اليمين المسيحي (يتوسع) في الولايات الجنوبية خاصة، وفي الولايات الواقعة في الغرب ووسط الغرب من البلاد، ومن ثم بات اليمين المسيحي عنصراً مهماً في السياسة في كل مكان تقريباً»[6]. ومن المرجح أن سيطرته توسعت هي الأخرى منذ ذلك الحين.

ومن العوامل التي ساعدت في زيادة تأثير القوميين المسيحيين في الكونغرس - برغم قلة عددهم - سيطرتهم على الفروع المحلية للحزب الجمهوري في الولايات والمحافظات، إضافة إلى ارتفاع نسبة تمثيلهم في مجلس الشيوخ، عن الولايات ذات التعداد السكاني القليل. وفي عام 2004 حصل اثنان وأربعون عضواً في مجلس الشيوخ - من بين أعضائه البالغ عددهم 100 - على تقدير 100 % من منظمة الائتلاف المسيحي. وهذا يعني أن هؤلاء الشيوخ تبنوا موقف الائتلاف في كل القضايا التي تهم الائتلاف. كما حصل أكثر من نصف أعضاء مجلس الشيوخ على تقدير 83 % على الأقل. وكان ذلك قبل انتخابات عام 2004، التي جلبت بدورها مزيداً من مُغالِي الجناح اليميني إلى المجلس التشريعي من أمثال كوبورن وديمنت.

♦

لكي نفهم كيف استطاعت حركة القوميين المسيحيين تحقيق هذا القدر الكبير من القوة والنفوذ، فإن من الضروري العودة إلى سجل التاريخ الحديث.

ترجع جذور الحركة القومية المسيحية إلى جملة من السوابق، أبرزها الواعظان الأصوليان المتعاطفان مع النازية: جيرالد بي وينراد، وجيرالد إل كيه سميث. وهما من الخطباء الدهماء في عصر الركود الاقتصادي العظيم في الولايات المتحدة. واشتهرا بمناكفة الشيوعية، والحداثة، والحكومة الكبيرة (وكما في حالة وينراد، مناكفة الداروينية). وكانا يروجان لخطاب إنجيلي يميني يمزج مابين المسيحية والوطنية.

أسس سميث جماعة تسمى: (الحملة الصليبية القومية المسيحية)، وتدعي المجلة التي تصدرها هذه المجموعة - التي عنوانها: (الصليب والعَلَم) - أن «الشخصية المسيحية هي أساس كل ما هو أمريكي»[7].

وللقومية المسيحية اليوم جذور تمتد إلى جمعية جون بيرتش المعادية للشيوعية، وهي جمعية شعبية مهتمة بالمؤامرة، تأسست عام 1958. وكما سأوضح في الفصل السادس، فإن أطروحات القوميين المسيحيين وحجهم وحملاتهم تطابق الدعاية التي تروج لها جمعية جون بيرتش، كما أن قياديي الحركة القومية المسيحية مثل تم ليهي بدؤوا مسيرتهم من جمعية جون بيرتش.

ومع ذلك - وفي ظل تحول القومية المسيحية إلى قوة سياسية حزبية - فإنها تطورت من اليمين المسيحي المعاصر الذي ولد أواخر سبعينيات القرن الماضي، وذلك حين قامت مجموعة من المخططين الإستراتيجيين في الجناح اليميني المحافظ، بمن فيهم بول ويريتش وريتشارد فيغوري، وهاورد فيلبس - وكلهم من أتباع مدرسة باري غولدووتر - بتجنيد قس معمداني غامض يدعى جيري فالويل، والإيعاز له بتشكيل المجموعة التي تسمى: (الغالبية الأخلاقية)، وكانت فكرتهم تقوم على استخدام قضايا اجتماعية مثل الإجهاض كإسفين لإحداث شرخ بين مؤيدي القيم الاجتماعية التقليدية من الشعب الأمريكي، وبين الحزب الديمقراطي، واستغلال طاقة الحركة الإنجيلية لمصلحة الحزب الجمهوري.

ونجحت الخطة. وكتبت سارة دايموند - وهي واحدة من أبرز المتخصصين بدراسة اليمين الأمريكي - في كتاب لها نشر عام 1995 بعنوان: (الطريق إلى الهيمنة)، حركة الجناح اليميني والقوة السياسية في الولايات المتحدة، جاء فيه: «لم يقتصر إسهام المسيحيين الإنجيليين على رفع مجموع الأصوات التي حصل عليها ريغان وحسب، بل إن المنظمات الجديدة المدعومة من اليمين مثل منظمة الصوت المسيحي، ومنظمة الأغلبية الأخلاقية، كان لها أكبر الأثر في إقصاء أعضاء ليبراليين تقليديين من مجلسي الشيوخ والنواب»[8]. ومن بين أبرز أعضاء مجلس الشيوخ الليبراليين التقدميين الذين خسروا مقاعدهم: السيناتور جورج ماكغفرن من ولاية

ساوث داكوتا، والسيناتور فرانك تشيرتش من ولاية أيداهو. وكانت تلك السابقة هي بداية إعادة توازن جديد في وسط أمريكة ما زال الديمقراطيون يعانون من آثاره.

وفي عام 1981، قامت مجموعة من الناشطين اليمينيين من بينهم تم ليهي، وهو عضو أصيل في منظمة الأغلبية الأخلاقية، بتأسيس مجلس السياسة القومية (سي إن بي) ويمثل هذا المجلس رد اليمين المسيحي على مجلس العلاقات الخارجية (سي إف آر)*. ويشكل مجلس السياسة القومية كابوساً على الليبراليين، ويجتمع المجلس سراً ثلاث مرات سنوياً، ويحضره مجموعة من الناشطين الإنجيليين الأقوياء، وساسة من الحزب الجمهوري، ومتبرعون أثرياء، لوضع خطط كفيلة بتوجيه البلاد نحو اليمين. وعلى مدى السنوات الماضية، ضمت عضوية المجلس الشخصيات الآتية: جيمس دوبسون، وبات روبرتسون، ومايكل فيريس، وتوم ديلي زعيم غالبية مجلس النواب السابق، والسيناتور السابق جيمس هيلمز، إلى جانب منظرين مسيحيين مثل آر جي رشدوني. وما زال مجلس السياسة القومية قائماً وقوياً. وما زال بوش يرفض نشر نص الخطاب الذي ألقاه في اجتماع المجلس عام 1999. وفي أثناء رئاسته الحالية، حضر كل من دك تشيني ورمسفيلد اجتماعات لمجلس السياسة القومية»[9].

يحتاج اليمين المسيحي دائماً إلى عدوّ. وإبان حكم ريغان، وقف الاتحاد السوفيتي في مكان الشيطان، وهذا هو سبب شعور عدد كبير من الناس بالنشوة لسماع لغة الخطاب الملحمية ونهاية العالم التي كانت تصدر عن الرئيس، ودعمهم المتحمس لسياساته في أمريكة اللاتينية وإفريقية. وقام كل من نجم الإعلام المسيحي بات روبرتسون، وبفرلي ليهي -التي أنشأت منظمة النساء المهتمات من أجل أمريكة-، بجمع التبرعات لمصلحة عصابات الكونترا في نيكاراغوا. وكان روبرتسون مناصراً

* يقع مجلس العلاقات الخارجية في مركز عدد كبير من نظريات المؤامرة التي يروج لها اليمين. وكتب بات روبرتسون في كتابه (النظام العالمي الجديد)، ما يأتي: «يمتد خيط واحد من البيت الأبيض، إلى وزارة الخارجية إلى مجلس العلاقات الخارجية إلى اللجنة الثلاثية، إلى الجمعيات السرية، إلى غلاة العصر الجديد (نيو إيج). والهدف هو إقامة نظام عالمي جديد مؤلف من حكومة عالمية واحدة، وقوة شرطة عالمية، ومحاكم ذات تخصص عالمي، ونظام مصرفي عالمي، وعملة عالمية واحدة، ونخبة عالمية تسيطر على ذلك كله».

متحمساً للحاكم الغوغائي المستبد إفرين ريوس مونت، ولحكومة السلفادور التي كانت ترسل فرق الاغتيال لتصفية خصومها السياسيين. واستخدم جيري فالويل موقعه للمجاهرة بدعمه لنظام الفصل العنصري في جنوب إفريقية، عاداً إياه قلعة حصينة في مواجهة الشيوعية[10].

إلا أن حكومة ريغان خيبت آمال اليمين المسيحي على الجبهة الداخلية. ومع أن ريغان وضع عدداً قليلاً من ناشطي الحركة في مناصب مهمة في حكومته، إلا أنه قدم قليلاً من رأس المال السياسي لتنصير البلاد. فضلاً عن ذلك - وحتى مع دعم ريغان - كان مجلس النواب خاضعاً لسيطرة الديمقراطيين. لذلك لم يكن لمبادرات اليمين المسيحي فرصة لرؤية النور.

وبعد إدراك اليمين المسيحي أن كسب البيت الأبيض في صفه لا يكفي لتحقيق أهدافه، فقد توسع في تركيزه على سياسات القاعدة الشعبية (حتى مع تحول جماعة منه إلى الإرهاب الموجه ضد ممارسي الإجهاض). فبدأ الناشطون بالسيطرة على الدوائر الانتخابية للحزب الجمهوري واحدة تلو أخرى، مرشّحين أنصار الحركة في المجالس المحلية ليصبحوا مندوبين في الحزب. وكانت حملة بات روبرتسون عام 1988 للترشيح لمنصب الرئاسة الأمريكية عن الحزب الجمهوري درساً تعلم منه الإنجيليون أصول التنظيم على المستوى المحلي وتفاصيله. وانبثق عن البنية السياسية التحتية لتلك الحملة الائتلاف المسيحي الذي دخل الحلبة السياسية عام 1989.

◆

يعد القس بات روبرتسون -مؤسس الائتلاف المسيحي- عنصراً مهماً في تطوير القومية المسيحية. ويبث روبرتسون -عبر إمبراطوريته الإعلامية المسماة شبكة البث المسيحي- برامج تلفازية وإذاعية بإحداى وسبعين لغة إلى معظم بلاد العالم. وتبدو على روبرتسون ملامح الجد الحنون، إلا أن كتاباته تفصح عن نزعة استبدادية مستحكمة. وتعتمد هذه النزعة على نظريات مؤامرة مهووسة معادية للسامية[11].

ويتحدث في كتابه المنشور عام 1991 بعنوان: (النظام العالمي الجديد) عن تآمر التنويريين واليهود أرباب المصارف الذين يعملون في الخفاء، ويستغلون ويتلاعبون بمجريات الأحداث في العالم لتحقيق مكاسبهم المادية الشخصية. وهاجم روبرتسون (اليهود الليبراليين العلمانيين) على (هجومهم على المسيحية)، وقارن بين اضطهاد المسيحيين على يد الليبراليين بالحملات الدعائية الإعلامية النازية[12].

ساعد روبرتسون في وضع مذهب الهيمنة – وهي الفكرة القائلة: إن (الرب) أعطى المسيحيين الحق بحكم العالم – في مركز نشاط الحركة؛ كي يقرب الإنجيليين إلى العمل السياسي. والهيمنة المسيحية مستقاة من مذهب لاهوتي يطلق على أتباعه اسم «التجديديون المسيحيون» وينادي هذا المذهب بفرض قانون مستمد من شريعة العهد القديم بديلاً عن القانون الوضعي. ومعظم مبادئ العقيدة التجديدية المسيحية – وهي أصلاً عقيدة كالفينية متشددة تفرض عقوبة الإعدام على قائمة طويلة من الجرائم الأخلاقية، بما فيها الشذوذ الجنسي، والردة عن الدين – لا تجد سوى قليل من التجاوب خارج نطاق أتباع تلك النِّحلة. وهي عقيدة مثيرة للجدل حتى في أوساط المحافظين المسيحيين. إلا أن مذهب الهيمنة والنظرية السياسية المنبثقة عنه كان لهما تأثير واسع في قطاع عريض من الحركات الإنجيلية. ويعود الفضل في ذلك إلى روبرتسون.

وكما لاحظ المؤرخ غاري ويلز، فإن روبرتسون أعاد تشكيل أفكار مذهب الهيمنة المسيحية في كتاباته. وكتب ويلز يقول: «جرت العادة أن يشعر الإنجيليون المتكسبون بعدم الارتياح من المنافسة، إلا أن هناك جانباً واحداً في كتاب المملكة السرية، لروبرتسون، اقتبسه من غيره، وهذا الجانب هو وجهة نظره حول «الهيمنة»... ويركز علماء اللاهوت الذين يقولون بالهيمنة، تركيزاً كبيراً على ما ورد في سفر التكوين 1:26-27، وفيه يقرر (الرب) لآدم أن تكون له الهيمنة على عالم الأحياء وعالم الجمادات من المخلوقات. وبسقوط آدم في الخطيئة يكون قد تخلى عن هيمنته على تلك المخلوقات، إلا أن المخلِّص، الذي يعاد إلى رحمة (الرب) بعد تعميده، يمكنه أن يطالب مرة أخرى بالحق الذي أعطاه (الرب) لآدم. وبذلك فإن الورثة الحقيقيين،

وحماة هذا العالم هم المسيحيون الذين باستطاعتهم تسمية هذا الملك، واستعادته بموجب الحق الرباني»!![13].

يرى عدد من القوميين المسحيين -ومن بينهم رالف ريد، المدير التنفيذي السابق لمنظمة الائتلاف المسيحي، وصاحب الشخصية التلفازية الجذابة- أن من الحكمة التبرؤ من عقيدة الهيمنة المسيحية. غير أن روبرتسون ليس لديه هذا القدر من الارتياب من تلك العقيدة برغم معارضته بعض جوانبها. وقام باستضافة عدد من قادة تلك الحركة في برنامجه نادي السبع مئة الذي يبث عبر التلفاز، كما أن مؤلفاتهم مدرجة ضمن متطلبات بعض المواد التي تدرس في جامعة ريجنت التي يملكها روبرتسون[14].

♦

لعل الأهم من الدعم الذي يبذله روبرتسون لخطاب الهيمنة، (أو الرفض الذي يبديه ريد لها)، هو الطريقة التي استخدمها الائتلاف المسيحي في وضع ذلك الخطاب موضع التطبيق.

إذ تدعو نظرية الهيمنة المسيحية إلى توظيف إستراتيجية سرية بهدف صبغ السياسة والثقافة بالصبغة المسيحية. وفي مقالة نشرت عام 1981 في مجلة التجديد المسيحي، كتب غاري نورث، وهو واحد من أبرز منظري الحركة، عن الحاجة إلى قيام الناشطين في الحركة باختراق المؤسسات العلمانية؛ بغية «تسهيل عملية تحوّل مقاليد الحكم إلى القيادة المسيحية السياسية ... يجب أن يبدأ المسيحيون بالتنظيم السياسي عبر الهيكل الحزبي القائم في البلاد اليوم، ويجب أن يبدؤوا باختراق التنظيم المؤسسي القائم»[15].

ويتخصص الائتلاف المسيحي بهذا النوع من المواجهة السياسية. وفي حين ركزت منظمة الأغلبية الأخلاقية في نشاطها على توجيه الرسائل المكتوبة إلى الجمهور وتنظيم المسيرات، يقوم الائتلاف المسيحي بتدريب الناشطين والمرشحين السياسيين على المستوى المحلي. فقد رشحوا أنفسهم في انتخابات مجالس المدارس، وتعلموا كيف

يصبحون مندوبين عن الحزب الجمهوري. وتحث تعليمات الائتلاف المسيحي التي توزع على المرشحين من أنصاره، وتشدد على ضرورة كتم أجندتهم الدينية إلى حين فوزهم في الانتخابات. ويمكن للناخبين في الدوائر الانتخابية التعرف على مرشحي الائتلاف المسيحي، عن طريق الأدلة الانتخابية التي توزع في الكنائس المحلية التابعة للائتلاف. إلا أن جمهور الناس – في العادة – في غفلة عن هذا. وقد صرح رالف ريد في مقابلة مع صحيفة نورفلوك فيرجينيا بايلوت نشرت عام 1991، بقوله: «أريد أن أكون بعيداً عن الأنظار،... إنني أصبغ وجهي، وأسافر في الليل. لأن النتيجة لا تتأكد لك إلا عشية يوم الاقتراع».

وقد نجحت القاعدة الشعبية للائتلاف المسيحي في تطبيق هذه الإستراتيجية بكل فاعلية، إلى درجة أن ناشطي اليمين المسيحي بحلول عام 1992 كانوا أكثر تأثيراً في صياغة البيان الانتخابي للحزب الجمهوري من مرشح الحزب آنذاك جورج هيربيرت بوش. وكان نصف الأعضاء المنتدبين لحضور المؤتمر العام للحزب الجمهوري هم من اليمين المسيحي. وقد نجح أتباع اليمين المسيحي في إدراج بند في البيان الانتخابي العام للحزب، يدعو إلى تعديل دستوري لحظر الإجهاض من دون أي استثناء، وذلك على الرغم من معارضة جورج بوش مرشح الحزب للرئاسة آنذاك.

شهد الائتلاف المسيحي تراجعاً كبيراً منذ أواخر التسعينيات. فقد تركه رالف ريد بعد أن أصبح مستشاراً سياسياً عام 1997، (ثم ليصبح مرشحاً لمنصب نائب حاكم ولاية جورجيا). وخسر الائتلاف صفة المنظمة غير الربحية إثر مخالفته تعليمات اللجنة الفدرالية للانتخابات ولوائحها المتعلقة بالأنشطة السياسية الحزبية. وتراجعت التبرعات التي يتلقاها الائتلاف من 26,5 مليون دولار عام 1996 إلى ما يقدر بنحو 3 ملايين دولار عام 2000 وذلك بحسب ما تذكره المنظمة الليبرالية المسماة: (الشعب من أجل الطريقة الأمريكية). وتخلى روبرتسون عن رئاسة الائتلاف عام 2001 قائلاً: إنه يريد أن يوجه مزيداً من الانتباه نحو كنيسته.

وحتى مع الضمور الذي لحق بالائتلاف المسيحي، فإن الحركة القومية المسيحية شهدت توسعاً عريضاً، وترعرعت فيها منظمات أخرى. ومن بين أهم الذين برزوا

في مجال النشاط الحزبي السياسي القس الإنجيلي المتخصص بعلم النفس جيمس دوبسون، الذي يرأس منظمة التركيز على الأسرة. كان دوبسون ناشطاً في الحياة العامة والقضايا التي تهم التيار المحافظ منذ السبعينيات، إلا أن أكثر ما اشتهر به في العقد الأخير هو نصائحه حول تربية الأطفال والحياة الأسرية المسيحية، وهي نصائح نجدها في كتبه التي تلقى رواجاً كبيراً، مثل: (كتاب الجرأة على الانضباط)، وفي برامجه الإذاعية واسعة الانتشار.

دخل دوبسون حقل السياسة عام 1990 بهدف محاربة حقوق ذوي الميول الجنسية المثلية. وكان له نشاط مكثف في دعم حملة التعديل رقم 2، وهي مبادرة طرحت على الاستفتاء الشعبي في مدينة كولارادو، وتهدف إلى إلغاء القوانين التي تحرم التمييز العنصري ضد الشواذ جنسياً. وكما يذكر التقرير الصادر عن المركز القانوني لدعم الفقراء في الجنوب، فإنه «لما بدأ دوبسون بدعم حملة الاستفتاء على التعديل رقم 2، كان القائمون على تلك الحملة يعانون من جمع ما يكفي من التوقيعات لتأمين نصاب طرح المسألة على الاستفتاء في الانتخابات القادمة. وفي ليلة أو ضحاها، شهدت الحملة تدفقاً في المتطوعين والأموال. وفاز التعديل رقم 2 في الاستفتاء بنسبة 53 % مقابل 47 %».

وبحلول عام 2004، كان دوبسون مغتاظاً من شبح زواج المثليين، وغيره من الأخطار التي تهدد الأسرة الأمريكية، إلى الحد الذي دفعه إلى التخلي عن موقفه الحزبي المحايد نهائياً. وبدأ بتأسيس منظمة مستقلة مخصصة للنشاط السياسي، واتخذ لها اسم العمل من أجل التركيز على الأسرة، وسخّر جهوده في حملة إعادة انتخاب بوش.

كان دوبسون على قدر من التأثير يماثل تأثير فالويل أو روبرتسون، إلا أنه لا يمكن القول: إنه حل محل أي منهما. فالحركة القومية المسيحية عملت على تطوير عدد من مراكز القوى، بدلاً من تركيز كل طاقاتها في منظمة وحيدة، وبذلك تُوَفِّر لها

توليفة من التنظيم والانتشـار. وتتبدل مراكز الجذب فيها باستمرار، وتقيم تحالفات جديـدة، وتلغـي أخرى، وليـس فيها قادة لا يمكن الاسـتغناء عنهـم. ويمكن لأي رمز من رموز الحركة أو من حلفائها السياسـيين أن يسـقط غداً، ومع ذلك تبقى الحركة القومية المسيحية قائمة دون أن تصاب بأذى.

وتركز المنظمات المسـتقلة المنضوية تحت لواء الحركة على مجموعة من القضايا في آنٍ واحد. وتقوم كلها بدور المحفز والمسـاند للحزب الجمهوري، وتمثل حجرة الصـدى للخطاب المحافظ، تتحول فيها الادعاءات العجيبة والمستغربة إلى مراتب الحس السليم والذوق العام في معظم أرجاء البلاد.

♦

دمـج جـورج دبليو بوش القوميـة المسـيحية في الحكومة الأمريكيـة على نحو غير مسـبوق في التاريخ الأمريكي. ولقيت تعييناته لرمـوز بارزين في الحركة -مثل تكليفه جون آشـكروفت بمنصـب المدعي العام الفـدرالي- اهتماماً كبـيراً، إلا أن التعيينات الأقل أهمية، التي لم تلقَ اهتماماً إعلامياً كانت هي الأخطر. فعناصر الحركة القومية المسـيحية يحتلون مناصـب مهمة في أجهـزة الحكومية الفدراليـة، ويتخذون قرارات منذرة بالخطر وفق عقيدتهم الشخصية التي تؤثر على حياتنا العامة. وهذا هو سبب من أسـباب الشرخ المخيف بين الدليل العلمي والتاريخ، وبعض البيانات المتشددة التي صدرت عن الحكومة.

ليـس لدينا وسـيلة نتعرف بواسـطتها على مدى قناعـة بوش بالنظرة المسـيحية العالمية، ومع ذلك، فهو يصـرح باسـتمرار عن اعتقاده بأن (الرب) هو الذي وضـعه في البيـت الأبيض. وبغض النظر عن معتقداته الشخصـية، فإن معظم أتباع الحركة يعتقـدون بأنه واحد منهـم. وتطري كتب القوميين المسـيحيين وأفلامهم ورع الرئيس وتقـواه وتدينه!! وقام ديفيد دبليو بالسـينغر، وهو عضـو سـابق في مجلس السياسـة القوميـة، بإخـراج وإنتاج فيلم وثائقـي حول حياة بوش؛ مدته سـبعون دقيقة بعنوان، جـورج دبليو بوش: الإيمان والعقيدة في البيت الأبيض، وقد عرض الفيلم سـيرة حياة

بوش، كما تعرض سير القديسين، بدءاً من تحوله في منتصف عمره من شخص سكير عابث فاجر، إلى قائد مسيحي ورع[16]. (ومن اللحظات الحاسمة في عملية التحول هذه، اللقاء الذي وقع في مدينة مدلاند بولاية تكساس عام 1984 بين بوش وأحد الرحالة الإنجيليين واسمه آرثر بليسيت، وبليسيت هذا، طاف حول العالم مترجلاً وهو يحمل صليباً طوله اثنا عشر قدماً على كتفه، فحقق بذلك هدفين: الأول: دعوة الناس إلى المسيح، والثاني: دخول سجل غينيز للأرقام القياسية تحت عنوان: «أطول رحلة على الأقدام في العالم»). ويعج البيت الأبيض في عهد بوش بالمسيحيين الإنجيليين. وكما يقول مراسل محطة بي بي سي، فإنه «لا أحد في البيت الأبيض يمضي وقتاً في الصلاة أكثر من جورج بوش». وتكثر الاقتباسات الإنجيلية في خطابات الرئيس بوش وبياناته، ويعود الفضل في ذلك إلى أحد كاتبي الخطابات العاملين في البيت الأبيض، واسمه مايكل غيرسون، وهو أحد المدانين في قضية ووترغيت، وأصبح إثر خروجه من السجن من مشاهير الإنجيليين بعد ولادته الجديدة في الدين المسيحي، وتمويله خدمات تبشيرية، ومنح دراسية إنجيلية داخل السجون الأمريكية.

إن من الواضح أن بوش يؤمن بالقوة العجيبة للقاعدة الشعبية المؤمنة والمتفانية. وقد قدم للحركة القومية المسيحية امتيازات حكومية، ووضع تحت تصرفها بلايين الدولارات من الخزينة العامة. وعملت الحركة - بالمقابل - على تأمين إعادة انتخابه، فضلاً عن تعزيز الأغلبية للحزب الجمهوري في الكونغرس.

ومع ذلك، فالقوميون المسيحيون ليسوا راضين ولا قانعين. بل إن من أعجب الأمور عن هذه الحركة - برغم كل ما تمارسه من تأثير - هو تزايد وتيرة عويلها وشكواها من الاضطهاد في الأعوام القليلة الماضية، وزيادة مطالبتها وإصرارها على الهيمنة والسيادة. وجرت العادة عند قادة القوميين المسيحيين وساسة الحزب الجمهوري الذين يدعمونهم، حين يتعلق الأمر بمحاولات الدفاع عن مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة، أن يصوّروا القضية على أنها جزء من «الحرب» على المؤمنين.

في ربيع عام 2005، ظهرت فضيحة في أكاديمية سلاح الجو الواقعة في كولورادو سبرنغز، في الجهة المقابلة للمقر الرئيس لمنظمة التركيز على الأسرة. ويفيد عدد من التقريرات بأن جواً من القومية المسيحية يطغى على الأكاديمية، وهو ما يفضي عادة إلى تفشي التزمُّت الديني في الأكاديمية. وكان يطلب من الطلبة الذين يرفضون الحضور إلى المصلى في أثناء التدريب، السير في طابور إلى ثكناتهم فيما يطلق عليه (هروب الوثنين). وقدّم بعض أعضاء هيئة التدريس أنفسهم بوصفهم من المولودين الجدد في المسيحية، وشجعوا تلاميذهم على البحث عن يسوع. وتوالت تقريرات عدة حول استخدام الطلبة المتقدمين سلطتهم على الطلبة المستجدين في التبشير المسيحي، وتحقير الذين يرفضون الاستجابة؛ ونعت طالب يهودي في الكلية بقاتل المسيح[17].

وكان رد المسيحيين القوميين على هذه الفضيحة لافتاً للنظر. إذ سارع قادة الحركة فوراً بالإعلان بأن الإنجيليين المسيحيين هم الضحية. ولما اقترح النائب الديمقراطي في مجلس النواب ديفيد أوبي، تعديلاً على قانون مخصصات الدفاع؛ يدعو إلى إجراء تحقيق في التمييز الديني الذي يمارس في الأكاديمية، تصدى له جون هوستيتلر العضو الجمهوري الذي أعلن تحت قبة الكونغرس قائلاً: «إن الحرب المديدة على المسيحية في أمريكة تتواصل اليوم على أرض مجلس النواب»، وأضاف: «ويبدو أن الديمقراطيين لا يمكنهم التوقف عن احتقار المسيحيين، ونعتهم بالأشرار».

وبعد أسبوع، استضاف جيمس دوبسون النائب هوستيتلر في برنامجه الإذاعي، وابتدأ دوبسون الحلقة بالإعلان عن أن «القوى الليبرالية في هذا البلد ترغب في سحق حريات المسيحيين الإنجيليين على الصعيد الثقافي، إلا أن جهودهم بدأت تصل إلى أكاديمية سلاح الجو». وأشاد بالنائب هوستيتلر على امتلاكه «الشجاعة للوقوف في وجه هذه الهجمة والتصدي لها».

ثم قال هوستيتلر: «إنني في غاية الامتعاض من تحويل عبارة: (الإنجيليين المسيحيين)، إلى لقب يستخدم للذم والتحقير. ولهذا السبب لم أحتمل البقاء صامتاً في مجلس النواب».

إن ترديد مقولة: إن المسيحيين محاصرون ومستهدفون يخلق شعوراً بالأزمة المستمرة في صفوف القاعدة الشعبية للحركة، ويشيع الحديث بينهم حول الاضطهاد. ولقد سمعت بعض المفوهين، والمؤمنين المهذبين - أي الأشخاص الذين يقولون: إنهم يتطلعون إلى أن يحل التفاهم والاحترام المتبادل، محل الشقاق المرير في أمريكة - يعبرون عن قلقهم من أن الحكومة الأمريكية ربما تقوم في المستقبل القريب باعتقال المسيحيين والقضاء عليهم.

يقول وين ماركيغارد - وهو موظف في الحكومة الفدرالية في وزارة الزراعة، ويبلغ من العمر خمسين عاماً، وينحدر من ولاية نورث داكوتا: «خذ مثلاً: المبشرين المسيحيين؛ إنهم يقتلون في كل يوم بسبب عقيدتهم. وهم يموتون في سبيل ديانتهم». ويخشى وين من أن الشيء نفسه سيحدث هنا في أمريكة في يوم من الأيام.

ويضيف وين: «أعتقد أن ذلك سيحدث. تلك الأحداث التي نشهدها ولا يسعني الجزم على سبيل اليقين، ولكن حين تدور هذه الأحداث، وتدور في هذا الاتجاه، وما لم يتدخل (الرب) - وسوف يتدخل الرب، لأن هذا مكتوب - فسوف تصل الإنسانية في النهاية إلى تلك النقطة».

وقال: «انظر إلى ما يحدث في كندا. إن القسيس الذي يقرأ من الإنجيل ما يتعلق بالشذوذ الجنسي يمكن أن يعاقب بالحبس. وهذه هي الخطوة الأولى التي تسبق الثانية، ثم الثالثة، ثم التي تعقبها إلى أن تفضي في النهاية إلى ما هو أسوأ».

التقيت ماركينغار وأخاه ديفيد البالغ من العمر 48 عاماً، في أثناء جولة استطلاعية جماعية للتعرف على المباني التي تضم المقر الرئيس لمنظمة التركيز على الأسرة. وكان وين في زيارة أخيه ديفيد الذي يقيم في كولارادو، وكان الاثنان يقضيان يومهما في التجوال حول المدينة. وبعد زيارة موقع التركيز على الأسرة، توجها إلى أكاديمية سلاح الجو.

يعد مقر دوبسون، الذي يقع في مبنىً ممتداً من الحجر على أرضية ملونة، مركز جذب للسياح في كولورادو سبرنغز. ولهذا المكان رمز بريدي خاص به، إضافة إلى لافتة كبيرة على جانبي الطريق السريع الذي يمر بالقرب منه. وبحسب ما يذكره الموقع الإلكتروني للمنظمة، فإن المقر استقبل أكثر من مليون زائر منذ افتتاح قاعة الاستقبال عام 1994، ويتألف مركز الاستقبال من مساحة واسعة مفتوحة تزخر بالمعروضات التي تطري وتمتدح دوبسون وأتباعه والحزب الجمهوري. وفي الوقت الذي زرت فيه المركز، شاهدت صورة مؤطرة للرئيس جورج دبليو بوش وإلى جانبه جيمس دوبسون وزوجته شيرلي. وقد علقت الصورة قرب شاشة تلفاز مثبتة على الحائط، وتعرض عرضاً متواصلاً خطاباً للرئيس بوش ألقاه في اليوم الوطني للصلاة. وإلى جانب الصورة علقت لوحة بداخلها رسالة من الرئيس بوش يشكر فيها دوبسون على دعمه لسياسة الحكومة المتعلقة بالخلايا الجذعية، وعلى (الدور القيادي الذي اضطلع به دوبسون في حشد الجهود، وتركيز انتباه الأمة على القيم والأخلاق).

وعلى مقربة من ذلك يقف تمثال لوالد جيمس دوبسون، وهو مبشِّر إنجيلي كان كثير الأسفار، ويظهر في التمثال وهو يصلي. وعلى الحائط يوجد معطف قرمزي اللون كان دوبسون يحب أن يلبسه في عيد الميلاد.

كنا خمسة عشر في الرحلة الجماعية الاستطلاعية المجانية، وكان من ضمن المجموعة أسرة تدرس ابنها في المنزل. وكانت الأسرة في إجازة استجمام قبل أن يلتحق الابن بالمعسكر الكشفي. وطلبت منا دليلتنا السياحية الشقراء ذات الجسم الممتلئ أن نعرف بأنفسنا - وكنت ذكرت لها أنني أقوم بالبحث والتقصي لغايات تأليف كتاب - قبل أن تصطحبنا إلى مبنى الإدارة. وأرتنا الحجرات ذات اللون الرمادي المائل إلى الصفرة، التي يستخدمها المرشدون في وضع ردودهم على آلاف الرسائل التي يتلقاها مركز التركيز على الأسرة كل يوم، وشاهدنا قاعة تشايلتريا وهي قاعة مفروشة بسجاد أزرق مخضر، وتجمع بين قاعة صلاة وصالة ضيافة. وفي واحدة من ردهات البناية، أشارت مرشدتنا السياحية إلى الخرائط المعلقة على الحائط، وعليها دبابيس تمثل المناطق التي يمكن فيها سماع بث برامج محطة (التركيز على الأسرة) في ثلاثين دولة.

كما شاهدنا أستديو بث إذاعي محفوفاً بنباتات الزينة ورفوف الكتب، وقد جعل أمام صالة مغلقة لأهداف البث الحي قبالة جمهور من الحضور. وكان هناك أيضاً غرف أصغر حجماً مخصصة للبث عبر الأقمار الصناعية؛ لكي يتمكن دوبسون من الظهور مباشرة على البرامج التلفازية دون الحاجة إلى مغادرة مكانه.

استغرقت الجولة ساعة من الزمن. ولما انتهت الزيارة، اعترضني ديفيد ماركيغارد في مدخل المبنى. وكان ينتابه فضول حول الكتاب الذي أعمل على تأليفه. وبدأنا نتحدث عن الشرخ الثقافي بين الساحل ووسط البلاد، وعن دور المسيحية في الحكومة، وعن الصراع الذي يراه هو وأخوه في الأسر التي تحيط بهما. وتحدث الاثنان حول رغبتهما في رؤية أمريكة وقد اجتمع شملها، وساد الاحترام بين أبنائها برغم الخلافات السياسية والدينية بينهم، وتوقفت مشاعر البغضاء والشقاق التي تفسد الأجواء. واتفقت معهما في هذا الرأي، وعندما وقفنا نتحدث في المبنى شبه الفارغ، بدأت أسائل نفسي إن كنت قد بالغت في تصوير الفجوة بين الواقع الذي أراه والواقع الذي يعيشه أتباع دوبسون.

امتدح وين ماركيغارد -وهو جدّ، ويتحدث بصوت منخفض وبلهجة سكان وسط غربي الولايات المتحدة- دوبسون لا بوصفه رجل سياسة، بل بصفته مستشاراً مؤمناً. وقال: «أعتقد أن الناس يبحثون عن إجابات عن كثير من الأسئلة التي تطرحها علينا الحياة ... ونجد في رحلتنا عبر الحياة أن هناك كثيراً من الأمور التي لا نفهمها، ولا تستقيم مع العقل. وهذه الكنيسة، وهذه المنظمة، تساعدان الناس في الوصول إلى الإجابات الشافية. إنهم يتحدثون عن شخص كاد يقدم على الانتحار، أو عن فتاة توشك أن تضع مولوداً ولا تعرف كيف تتصرف».

يعتقد ماركيغارد أن الأمريكيين يعانون من وهن ناتج عن المادية. والسؤال، كما يقول هو: «ما الذي أبتغيه من هذه الحياة؟ هل أريد أن يكون عندي منزلٌ فارهٌ، هل أريد كل هذه الأشياء؟ أم أريد أن يرث أبنائي الحكمة والبصيرة التي عندي، وأن يكونوا قادرين على استخدامها وحدهم عبر تجربتهم في هذه الحياة؟».

ويبدو لي أنه من الأهمية بمكان أن يسأل الناس أنفسهم ذلك السؤال.

غير أن الحل في نظر الأخوين ماركيغارد يكمن في إعادة إحياء العقيدة المسيحية لدى عموم الشعب. وكأن الالتزام بالمسيحية سيبدل القلق وخيبة الأمل في حياة الأمريكيين ثقة وطمأنينة. إنهما يتوقان إلى المجتمع المسيحي، لا بعدِّه جزءاً من الثقافة، بل بعدِّه الثقافة بعينها.

وذكر ديفيد بنبرة غاضبة محاولات حظر وضع شعارات وصور عيد الميلاد في ساحات المدارس الحكومية. وأضاف وين قائلاً: «إنني أعتقد اعتقاداً راسخاً أننا سنتحول إلى أقلية في هذا البلد». والضمير (نا) يعود على أتباع الديانة المسيحية، وأضاف: «هناك صراع قائم، وسيبقى هذا الصراع قائماً كما كان في السابق، ولكن علينا -نحن المسيحيين- أن ندرك أن هناك قوة تعمل في هذا العالم -، أن هذا العالم يعمل من أجل تدمير المسيحية. لذلك علينا أن نبقى دائماً في حيطة وحذر».

♦

وعلى الصعيد الشخصي، أرى أن كثيراً من الناس المنخرطين في الحركة القومية المسيحية هم على درجة من عمق التفكير، ومراعاة مشاعر الآخرين، ولين الجانب الذي لمسته لدى وين وديفيد ماركيغارد. وقد أخذني البحث التحضيري للكتاب إلى مختلف أرجاء أمريكة - بدءاً من مناطق الجنوب الخصبة السبخة، إلى الأحياء السكنية المتجانسة حول مدن الوسط الغربي من البلاد، ومن العاصمة واشنطن، إلى أوستن في تكساس، وأكثر من اثنتي عشرة ولاية بين تلك المناطق. وفي كل الأماكن التي زرتها تقريباً، كنت أقابل بالانفتاح وحسن الضيافة، حتى من الذين هم على دراية بعمق الخلاف في وجهات نظرنا. فأنا يهودية علمانية وحضرية. ومن الأسباب التي دفعتني إلى تأليف هذا الكتاب هو خوفي من تنامي المواقف العدائية في أمريكة تجاه القيم العالمية المتحررة من الأحقاد القومية والمحلية، والتي أقدرها كثيراً. وفي أثناء تنقلي في البلاد، وتحدثي إلى الناس بخصوص معتقداتهم، كنت ألتزم الهدوء في معتقداتي، ولكنني كنت أقول الحقيقة حينما أسأل عنها. وبينما حاول عدد كبير من المحافظين المسيحيين إقناعي باتباع ديانتهم، فقد حاول عدد قليل جداً منهم مهاجمتي والإساءة إليَّ. ولقد

قابلت الكثير من الناس في أكثر المناطق المحافظة في أمريكة، في الكنائس، والمسيرات، والمؤتمرات، وكانوا في أشد الشوق إلى التحدث والمناقشة في معنى الحياة، وفي فهمنا للأخلاق والواقع. لقد شاهدت الروح الدافعة التي تحفز كثيراً منهم، وتجذبهم إلى الحركة، وشاهدت تشوقهم إلى الوجود، ورغبتهم في تحقيق مكان لهم في العالم.

ويصعب على المرء أحياناً التوفيق بين هذه الطيبة وبين العنف الذي يظهر في خطاب الحركة. ومن السهل الانجراف إلى التفكير بأن كل هذا الكلام عن الحرب، واستعادة الأرض، وإذلال أعداء الرب، وبناء الأمة المسيحية، ما هو إلا من قبيل المبالغة الخطابية عديمة الضرر. ولكن من الخطأ -في نظري- افتراض أن الناس لا يعنون ما يقولون لمجرد أنهم يتصفون بالود واللطف في التعامل.

قبل أن أشرع في تأليف هذا الكتاب، عملت مراسلة صحافية في تغطية أخبار الشرق الأوسط. وهناك أيضاً، كنت ألقى المعاملة الدافئة والضيافة الكريمة. ومن الخطأ الاستنتاج من تلك المعاملة الطيبة أن مشاعر العداء في المنطقة تجاه اليهود والأمريكيين ليست حقيقية ومنذرة بالخطر. ولقد وجدت من تجربتي، أن الناس في الغالب أكثر لطفاً من أيديولوجياتهم. وأنهم دائماً أكثر تعقيداً. ومع ذلك، فإن الكياسة الشخصية يمكن أن تذوب وتتلاشى حين تتحرك الجماهير ضد أعداء صُوِّروا بالأشرار، وبخاصة إذا شعرت هذه الجماعات أنها مهددة بالهجوم.

إن أمريكة مليئة بالناس الطيبين، ولكن هناك شيء داكن طليق. ثمة قلق يطفو بحرية على السطح، وهذا القلق يتحول بسهولة وبشدة إلى رهاب وحقد موجه ضد الأعداء أنفسهم الذين استهدفتهم الحركات الشعبية الاستبدادية، وهم تحديداً: الشواذ جنسياً، والطبقة المتحضرة، والأجانب، والمثقفون، والأقليات الدينية. لقد بدأت (العقلنة) تفقد مكانتها؛ ولم يعد للأدلة التجريبية قوة الحجة؛ لأنها نتاج النظرة العلمانية، أو نظرة النخبة التحررية المتآمرة.

وفي مثل هذه الأجواء توصف معظم المصادر السائدة للمعلومات بأنها مضللة، ويجد عدد كبير من الناس صعوبة كبيرة في فهم الحالة القائمة، وما يحدث حولهم، ويصبح

لدى الشخصيات التي يثق بها المجتمع -رجال الدين، والساسة، ودهماء الإعلاميين من أصحاب البرامج الإذاعية والتلفزيونية الموجهة- قدرة عالية على الإقناع. وتختنق الديمقراطية في مثل هذا المناخ، ويمهد السبيل لشيء آخر؛ ليحل محلها. وفي هذا السياق كتبت حنّة آريندت في كتابها الرائع المنشور عام 1951 بعنوان: (أصول الأنظمة الاستبدادية) ما نصه: «تقوم الحركات الاستبدادية -قبل أن تقدم على الاستيلاء على السلطة وإقامة عالم وفق مذهبهم- باختلاق عالم متناسق من الأكاذيب، يكون أكثر توافقاً مع احتياجات العقل البشري منه تجاه الحقيقة نفسها.... وتكمن القوة المستجمعة في يد الدعاية الاستبدادية -قبل أن تملك الحركات الاستبدادية السلطة التي تمكنها من عزل المجتمع بستار حديدي لمنع أي شخص من تعكير، ولو بالحد الأدنى من الحقيقة هدوء هذا العالم الخيالي الشديد- في قدرة تلك الحركات على عزل جمهور الناس عن العالم الحقيقي»[18].

لست أجادل هنا أن أمريكة توشك أن تسقط في قبضة الاستبداد الديني. غير أن الحركة القومية المسيحية تشتمل على عناصر شمولية استبدادية، وتتبدى هذه العناصر في هجومها على الأعداء الداخليين الفاسدين، وفي سعيها نحو استبدال تصورها الموازي للحقيقة بتصور المجتمع وفهمه لتلك الحقيقة.

وفي الوقت الذي يستحكم فيه تأثير القومية المسيحية، فإن هذا التأثير يعمل على تغيير البلاد بطريقة مثيرة ومفزعة للغاية، في حين يصرح زعماء الحركة القومية المسيحية بأنهم لا يزالون في البداية، وأن الأمر يعود إلى الشعب الأمريكي في تحديد المدى الذي سيصلون إليه.

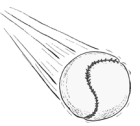

obeikandl.com